

استطعت أن تلمحه هنا لمحته هناك. وإلا فلا خبر عندي.

قلت: ليس يعني أن ألمحه هنا أو هناك. إنَّما يعني أنه يبرر الهزيمة بكثرة عدوه. ويترك صاحبه تأكله العرفاء أو الغبراء. ليتَه فعل فعل مالك بن أبي كعب حين طلب إليه أن يستأثر. ويسلم زوجه، فقاتل دونها حتى قتل وهو يقول:

لعمر أبيها لا تقول حليتي *** ألا فرّ عني مالك بن أبي كعب

وهم يضربون الكبش يبرق بيضه *** ترى حوله الأبطال في حلق شهب

قال: القياس مع الفارق كما يقول أصحاب المنطق. فليس من شأن الرجل الكريم أن يسلم امرأته. ولا عذرُها إلا أن يقتل. أما أن يبتغى رجلين عدو لهما كثير العدد. فإن الرأي حينئذ هو رأى أسامه. أو غيره من حيوان الغابه.

قلت: لست أحسب حيوان الغاب مفكراً فصاحب رأى.

قال: بل صاحب سلوك ناهيك به معبراً عن أحسن الرأي. إن الحيوان في الغابة لا يولى دبره أبداً. ولا يهرب من المعركة مادام عنصر التكافؤ قائماً.

ولو كان واضحاً أنه سيهزم. أما إذا عز التكافؤ بأن هاجم قطيع من الذئاب مثلاً نمراً فإنه لا يستحي أن يهرب ولا عليه حسب قانون الفطرة السليمة. فإن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها أو طاقتها على أبعد مدى. افتراك مكلفاً تأبط شراً ما لا يتكلفه الأسد أو النمر؟ إن الحزم أحزم الحزم أن يهرب في مثل الطرف الذي كان فيه وأولى له ثم أولى أن يرصد لهم يوماً آخر: يوم الأخاليج التي تصب في ذى المحافل الكبير: ومن شاء فلينزح فلن تعوزه الأشطان ولا الدلاء.

قلت:

إن كنت صادقة الذي حدثني *** فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم *** ونجا بثوب طمره ولجام